الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية – دراسة في أفكار بيكون وديكارت النقدية

م.محمد مصطفى أحمد*

الملخص

تتناول هذه الدراسة أهم التيارين التي ظهرا على الساحة الفكرية الغربية، ألا وهو الإتجاه التجريبي والإتجاه العقلي. إنطلاقاً من منظور الفيلسوف الانكليزي فرانسيس بيكون والفيلسوف الفرنسي رينية ديكارت، ونسعى إلى الكشف عن البنية الفكرية لكلا الإتجاهين، و فهم مبادئهما الرئيسية، فضلاً عن إبراز سماتهما. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف عن طريق تحديد منهج بيكون التجريبي، الذي يتخذ من التجربة والمدخلا الحسية مصدراً للمعرفة. فضلاً عن منظور ديكارت ومنهجه الشكي، الذي يؤمن بأن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، ولا يستسلم لأية أحكام سابقة دون فحصها وتحليلها.

الكلمات المفتاحية: بيكون، ديكارت، الفلسفة التجريبية، الفلسفة العقلية، الفكر السياسي الغربي الحديث، الفلسفة النقدية

Abstract

This study deals with the two most important trends that appeared in western political thought; the experimental trend and the rational trend. Starting from the perspectives of the English philosopher Francis Bacon and the French philosopher Rene Descartes, we seek to reveal the intellectual structure of both trends, understand their main principles as well as highlight their features. To reach this goal, we define Bacon's experimental method, which takes experience and sensory input as a source of knowledge, we will also look at Descartes' perspective and his skeptical approach, which believes that the mind is the only source of knowledge, and does not yield to any previous judgments without examining and analyzing them.

Keywords: Bacon, Descartes, experimental philosophy, mental philosophy, modern Western political thought, critical philosophy

* مدرس في كلية العلوم السياسية / جامعة السليمانية. Muhammad.ahmed@univsul.edu.iq

المقدمة

أدى ظهور التنوير في أوروبا إلى بروز ملامح فكرية وفلسفية جديدة، كما وأرست ظهور اتجاهات فكرية قواعد الفكر الغربي في اوروبا في القرن السابع عشر، وتطورت الفلسفة الغربية في إتجاهين أساسيين، هما، الإتجاه العقلي، يؤمن بأن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، والإتجاه التجريبي الذي يجعل من التجربة والأحاسيس الإنسانية مصدرا للمعرفة. وبما أن الفلسفة السياسية تتمثل بمعناها العام البحث عن الحكمة والفهم بإستخدام أساليب التفكير النقدي. فقد ساعد التنوير على تطوير مذاهب فكرية وفلسفية جديدة، التي كانت البداية لظهور الإتجاهات النقدية. مما كان سسبباً في ظهور مناقشات وجدل الفكري بين تلك الإتجاهات.

أهمية البحث: ساهمت المناقشات الفكرية التي أثيرت بين التيارات الفكرية في القرن السابع عشر في ابراز ملامح فكرية وفلسفية التي جسدها عصر التنوير. وهذا البحث تناول أثنين من أهم تلك التيارات التي مارستا دوراً بارزاً في الساحة الفلسفية، وهما الإتجاه العقلي المتمثل بديكارت، والإتجاه التجريبي المتمثل ببيكون. ففيما يتعلق بالإتجاه العقلي الذي يذهب في القول إن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، وإن الإنسان يتلقى المعرفة من داخل عقله، وليس من الخارج. بينما الإتجاه التجريبي فله رأي آخر، فينكر وجود أفكار فطرية في العقل، وإن المعرفة مستمدة من التجربة الحسية و ما يبدوا لنا من العالم الحسي، وإن معيار الحقيقة هو التطابق بين الفكر والواقع.

وتكمن أهمية هذا البحث في الأثر التي تركه كلا الإتجاهين في الفكر عامة والفكر السياسي الغربي على وجه الخصوص. حيث ساهم الصراع بين تلكم الإتجاهين في بروز اتجاهات فلسفية جديدة، التي ساهمت في إرساء قواعد الفكر السياسي الغربي الحديث، و الإنفتاح الفكري و ظهور إتجاهات نقدية و فلسفية ساهمت في إيصال المجتمعات الغربية إلى مستوى مرتفع من التقدم العلمي.

إشكالية البحث: على ضوء ما تقدم يمكن الإشارة إلى إشكالية البحث من خلال بعض التساؤلات، أهمها: وماهي الفلسفة التجربية؟ وكيف نظر بيكون إلى ذلك المنهج؟ وما هي أهم المحددات التي تعيق العقل من منظور بيكون؟ وماهي الفلسفة العقلية؟ وماهي الفلسفة العقلية عند ديكارت؟

فرضية البحث: يتجه هذا البحث لإثبات فرضية أنه على الرغم من أن الإتجاه العقلي الذي أرسى دعائمه ديكارت، قد بالغ في دور العقل في عملية المعرفة، على أنه المصدر الوحيد للمعرفة، وعلى الرغم من مبالغة الإتجاه التجريبي في أعطاء للحواس قيم معرفية بارزة، وعد التجربة أساس المعرفة، إلا كلا الإتجاهين شاركوا في اعتزازهم بقمية العقل والعلم، وشاركو في عد الإنسان بأنه أساس المعرفة، بفكره

كانت أم بتجاربه و أحاسيسه. كما أن الإتجاهين لم يستطيعا تقديم دلائل فلسفية قاطعة تنسف إدعائات الطرف الآخر.

اولا. فلسفة بيكون التجريبية

لعلنا لا نبالغ إذا اعتبرنا بأن أول ما بدأ العلم التجريبي كان على يد فرانسيس بيكون[1]، كما يمكن القول عنه بأنه كان فيلسوفاً واقعياً، وقد استندت فلسفته على صرحين وهما الملاحظة الخارجية من جهة والتجربة العلمية من جهة اخرى. وكان منهجه في البحث أو المنطق الجديد التي جاء به، مقابل المنطق الارسطي القديم، الرامي إلى تحرير العقل من كل الشوائب والمعتقدات المغروسة فيه والمتوارثة[2]. كما أراد بيكون اللجوء إلى الطبيعة وملاحظة ظواهرها وعدم الإكتفاء بالإستدلال القياسي القديم الذي أعتمد عليه مفكرون السابقون. وقد قدر له أنه تحرر من هيمنة وسيطرة أرسطو ومنهجه لتكشف لنا عن منهج جديد لم يستهدف من خلاله كشف القوانين، بل جعل منه منهجاً تجريبياً وطريقة لبيان صور الكيفيات[3].

من هنا عمل بيكون على وضع منهج جديد سماه "الأورغانون[4]الجديد"، والذي يمكن وصفه بأنه من أعظم أعماله لما يتضمنه من أفكار هامة و أسلوبه المميز في شرح منهجه. إنطلاقاً من هذا المنهج قام بقراءة نقدية للأفكار الفلسفية السابقة عليه لينشيء من خلاله فلسفته الخاصة. من هذا المنطلق نقسم المبحث على مطلبين، نخصص المطلب الأول للمنهج الفلسفي و أوهام العقل عند فرانسيس بيكون. أما المطلب الثاني فتخصصه للآراء النقدية لبيكون.

([1]) فرنسيس بيكون (1561-1626) فيلسوف ورجل دولة انكليزي، ويمثل بدايات الإتجاه التجريبي، درس القانون في جامعة كمبردج، انتخب كعضو للمجلس العموم عام 1584. واسمته ملكة اليزابيث مستشاراً فوق العادة للتاج، وبلغ مناصب قضائية عالية، لديه مؤلفات عديدة، أهمها المقالات، في تقدم العلم، الأورغانون الجديد، تأريخ الحياة والموت...الخ.للمزيد انظر: Simon Blackburn, The Oxford Dictionary of Philosophy-Oxford Paperback Reference, Oxford University Press,Oxford,1996,p 34.

([2]) مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه_دراسة تحليلية ونقدية، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص67.

([3]) كامل محمد محمد عويضة، فرنسيس بيكون- فيلسوف المنهج التجريبي الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص82.

([4]) كلمة "أورغانون" تعني الأداة أو الآلة"أي آلة الفكر". وهو الأسم الذي أسمى به المدرسيون في العصور الوسطى على مجموع مؤلفات أرسطو المنطقية التي كانت أداة كل بحث آنذاك. وقد أختار بيكون هذا الأسم لمؤلفه تعبيراً عن رفضه لمنهج أرسطو ومنطقه، كمحاولة في أن ينحيه ويحل محله. عادل مصطفى، أوهام العقل- قراءة في الأورجانون العقل لفرانسيس بيكون،مؤسسة هنداوي سي آي سي،المملكة المتحدة، 2018، ص17.

1. المنهج التجريبي و أوهام العقل عند فرانسيس بيكون

أن المسار الذي تسير عليها العلوم لا زالت عقيمة_حسب رأي بيكون_ ولن يكون له قيمة حتى يدر ظهره للفلسفة القديمة. واعتمد بيكون في ذلك منهج استراتيجية خطابية تهدف إلى منع المرء من الإكتفاء بالمعرفة الجاهزة ودفعه إلى البحث عن معرفة جديدة عبر تغيير المنهج القديم بمنهج جديد. ورأي أنه يجب علينا إكتشاف النظام الطبيعي للأشياء لتوسيع معرفته وتدعيم قوته في العمل، وفي سبيل النهوض بالعلوم الإنسانية التي تساهم في إتقان السيطرة على الطبيعة من خلال تفسير الظواهر والتحكم فيها. من خلال ذلك إعتمد على المعرفة العلمية التي تستند على الملاحظة والتفكير معاً وذلك لأن أدوات العقل واليد ضرورية في البناء المعرفي[1].

وتقف فلسفة بيكون بين العقلانية المجردة والتجريبية الخالصة، وكان يشبه الفيلسوف بالنحلة ويقول" إن المفكر التجريبي يشبه النملة التي تجمع قوتها وتختزنه، والمفكر العقلاني القطعي يشبه العنكبوت الذي ينسج خيوطه من المادة التي يستخرجها من جوفه، أما النحلة فهي تستخرج مادتها أولى من رحيق الزهور في الحقول، وتحوّل بفَنّها الجميل هذا الرحيق إلى عسل حلو المذاق". والفلسفة الحقيقية حسب رأيه تعمل على هذا المنوال، وتعمل بنفس الصورة التي تعمل بها النحلة، وثروة الفكر هي في الجمع بين المَلَكتين: التجربية والعقلية[2].

من هنا فقد نادى بيكون بإتباع منهج جديد في العلوم، إلا أن منهجه، لم يكن يستلزم محاكمة قبلية لحقائق لا يمكن الشك فيها، بل دعى الى منهج اختباري محض، يبدأ بملاحظة الأشياء، وحوادث خاصة، ويتحرك نحو تعميمات أوسع فأوسع. وهذه القضايا بخلاف قضايا الرياضيات، يمكن اثبات خطئها بالتجربة. عليه كان اهتمامه الرئيسي بالمنهج التجريبي، والذي يحظى بمكانة بارزة في تأريخ الفلسفة[3]. ويقول بيكون في ذلك " ليس هناك–ولا يمكن أن يكون–سوى طريقتين اثنتين للبحث عن الحقيقة وكشفها: الأولى تقفز من الحواس والجزئيات الى أكثر مبادئ عمومية. ثم تنطلق من هذه المبادئ– وقد سلمتُ تسليما بصدقها_ لكي تقرر المبادئ الوسطى وتكشفها، وهذه هي الطريقة الراهنة، أما الثانية فتستمد من

([1]) د.زهير الخويلدي، المنهج التجريبي عند فرانسيس بيكون، مقال فلسفي منشور على الأنترنت، على موقع شبكة نبأ، على الرابط الألكتروني التالي: https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/22746 تأريخ الزيارة 2021/8/20.

([2]) نقلاً عن: كامل محمد محمد عويضة، مرجع سبق ذكره، ص117.

([3]) ستيوارت هامبشر، عصر العقل_فلاسفة القرن السابع عشر، ترجمة د.ناظم طحان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللازقية–سورية، ط2،1983، ص18.

الحواس والجزئيات، ثم ترتقي في الصعود تدريجي غير منقطع حتى تصل في النهاية الى أكثر المبادئ عمومية، وهذه هي الطريقة الصحيحة وإن لم يجربها أحدُ حتى الآن. واذا تُرك الفكر لحاله فإنه يمضي في نفس الطريق الذي يتخذه عندما يسترشد بالمنطق (أي يتخذ أولى الطريقتين السابقتين). فالعقل مغرم بالقفز الى العموميات لكي يتجنب العناء؛ ولذا فإنه سرعان ما يضيق ذرعاً بالتجربة. غير أن هذه الآثام تتفاقم بالمنطق؛ لأنه يغري بالمُماحكة والمراء"[1]. على هذا الأساس يرفض التجريبية الخالصة لأن الوقائع غير المرتبة لا تصنع العلم. كما يدعوا إلى تجديد العقل بالإستناد إلى التجربة، حتى لا يتجمد ثانية ويتحجر في مبادئ ثابتة وقد تتجاوزها التجربة، وتثبت بطلانها. أي أن العقل يجب أن ينفتح على التجربة[2].

تأسيساً على ذلك يقترح بيكون وضع مراحل تدريجية لليقين، مع الإحتفاظ بعنصر الحس وصيانته عن طريق عملية التصحيح. ولكنه يرفض أغلب العملية العقلية التي تعقب فعل الإحساس، ليفتح بدلا منها مساراً جديداَ للعقل أكثر وثوقاً يبدأ مباشرة من الإدراكات الحقيقية للحواس نفسها. ويرى بأنه لاشك أن هذا قد شعر بضرورته أولئك الذين يولون المنطق دوراً كبيراً، عليه فإنهم يظهرون أنهم يسعون وراء نوع من الدعم للعقل، وأنهم لا يثقون بعمليات العقل الفطرية والعفوية. غير أنه يرى بأن هذا الحل قد جاء متأخراً ولم يعد يستطيع أن يكون ذا نفع، وذلك عندما يمتليء العقل بعد أتصاله بالعالم الخارجي بنظريات مغلوطة وأوهام فارغة. من هنا فإن هذا المنطق الذي وصل متأخراً جداً لإنقاذ العقل، عاجز عن اعادة الأمور الى نصابها، وأن تأثيره يكمن في تثبيت الأخطاء اكثر منه في الكشف عن الحقيقة. عيله فأنه لم يتبقى الا سبيلا واحداً يمكن بها استعادة ظروف صحية سليمة، وهو أن يبدأ العمل العقلي كله من جديد، فلا يترك للعقل اختيار طريقه الخاص منذ البداية بنفسه بل نرشده في كل خطوة يخطوها وننفذ العمل كما لو كان يتم بمساعدة آليات ميكانيكية. من هنا يجزم بيكون لو أن الناس شرعوا في الأمور الميكانيكية والعمل بأيديهم وحدها دون مساعدة الأدوات وقوتها، مثلما يفعلوم بلا تردد في الأمور الفكرية؛ اذ يستندون الى أفهامهم وحدها، لما استطاعوا أن ينجزوا شيئاً مهما حاولو و بذلوا من جهد[3]. ويقول بيكون في ذلك "ليس لليد وحدها ولا لعقل وحده أية قدرة تُذكَر. إنما يجري بالأدوات والعُدد. تلك التي يحتاجها الفكر بقدر

([1]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، 2018، ص16.

([2]) نقلاً عن: كامل محمد محمد عويضة، مرجع سبق ذكره، ص117.

([3]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص10.

ما تحتاجها اليد. ومثلما تقوم أدوات اليد بحفز حركتها وترشدها،- كذلك تقوم أدواتُ العقل بحفز الفهم أو وقايته"[1].

ويرى بيكون بأنه لا يمكن إعتبار أفكارنا صحيحة ومحل ثقة سواء كانت في المنطق أو في الفيزياء، ولا يمكن إعتبار أي من "الجوهر" ولا "الكيف" ولا "فعل" ولا "العاطفة" ولا "الوجود" نفسه أفكاراً واضحة. فضلا عن أن هناك أفكاراً يمكن اعتبارها أقل وضوحا من سابقاتها مثل فكرة "رقيق" ، "ثقيل" ، "خفيف" ، "كثيف" ، "صورة" ، "مادة" ، "عنصر" ، " رطب" ، " يابس" ... الخ من الأفكار، كأنها أفكار وهمية وغير محددة. فضلا عن ذلك فإن أفكارنا عن الأنواع الأقل عمومية مثل: "الإنسان"، "الكلب"..، وعن الأدراكات المباشرة للحواس مثل: "الحار"، "البارد" ..، لا تخدعنا كثيراً. إلا أنه حتى تلك الأفكار قد لا تكون واضحة في بعض الأحيان من جراء تدفق المادة وتغيرها وتفلاعل بعضها مع ببعض، وكل ما عدى ذلك، على رأي بيكون، مما استخدمه البشر إنما هو زيف وظلال،غير مستمد ولا مستخلص من الأشياء على نحو سليم. ويذهب بيكون الى أبعد من ذلك ويؤكد على أن جميع الإكتشافات العلمية، حتى الآن، يتوافق مع الأفكار الشائعة، ولكي نلوج في أعماق الطبيعة يستلزم منا أن نستخلص الأفكار والمبادئ من الأشياء بطريقة أكثر وثوقاً وحذراً. كما يتعين علينا أن نتخذ إجراء فكري أكثر وثوقاً وصحة[2].

وفي السياق نفسه يتناول بيكون موضوع الوجود و يرى بأن الإعتقاد بوجود الله، ليس بحاجة إلى الوحي أو أي دليل آخر، غير وجود العقل نفسه، الذي شاءت إرادة الله أن يكون على ما هو عليه، حتى يستطيع إدراك الكون أو الوجود بكل ما فيه من علائق وقوانين، ادراكاً لايقل وضوحاً ويقيناً عن إدراك الأعين لضوء الشمس أو القمر. ويعتقد بأن الإلحاد، ما هو إلا نتيجة لعدم التحصيل الكافي من الفلسفة، و وقوف العقل عند العل الظاهرية لأشياء، دون التعمق في معرفة عللها الحقيقية[3].

وتتلخص آراء بيكون تجاه المنطق القديم في أن هذا المنطق عاجز وعقيم إزاء الطبيعة ولا يقدم لنا أي معونة في إكتشاف خفاياها[4]، من هنا فإن نتيجة الخطيئة الأولى هي حرمان الإنسان من معرفة الطبيعة و بالتالي أخضاعه لسيطرتها، ويرى بيكون أن هذا الحرمان قد بقي خلال العصور الفلسفية القديمة والفلسفة المدرسية لأن الإنسان بقي على ادعائه وكبريائه غافلاً عن الطبيعة عاكفاً على ذاته، بل أدى به

([1]) المرجع نفسه، ص13.

([2]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد- ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص15.

([3]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص68.

([4]) د. نجيب الشاروني، فلسفة فرانسيس بيكون، دار الثقافة للطباعة والنشر، الدار البيضاء-مغرب، 1984، ص60.

العلم المدرسي إلى توسيع المسافة بينه وبين الطبيعة وإلى الإمعان في النظر العقلي والجدل العقيم. وظهرت عواقب الخطيئة بوضوح أكثر، وظهرت في آفات المعرفة عند عامة الناس عامتاً و عند المفكرين الفلاسفة والعلماء على وجه الخصوص. وإن هذه الآفات التي تظهر في الكبرياء والإدعاء والجدل العقيم والأنانية وفي العلم النظري، ويجب معرفتها وحصرها والحذر منها. ويطلق عليها بيكون أسماء فلسفية و بلاغية ويسميها بـ(ألأوهامeidolon) وأصل هذا اللفظ جاء من كلمة يونانية (idola) وتعنى صورة ذهنية[1]. من هنا فإن تأسيس العلم الجديد يتطلب التحرر من تلك الأوهام التي تضلل الفهم البشري، ويجزم بأن الإنسان لا يستطيع البحث عن المعرفة العلمية دون أن يحرر عقله قبل كل شيء من عقبات معينة أو كما يسميه "أصنام العقل"[2]. ويلخص تلك الأوهام التي تحدق بالعقل البشري، وتستمر في ملاحقته في عملية تجديد العلوم نفسها، و تحاصر الفكر الإنساني وتخع أمامه العراقيل ويستوجب التحصن منها قدر المستطاع في أربعة أنواع من الأوهام، وهي أوهام القبيلة، أوهام الكهف، أوهام السوق، و أوهام المسرح[3].

- "أوهام القبيلة" : وهي تكمن في الطبيعة البشرية وفي القبيلة البشرية نفسها أو في الجنس البشري نفسه، وإن الرأي الذي يذهب الى جعل حواس الإنسان مقياساً للأشياء إنما هو رأي خاطئ. لأن جميع الإدراكات الحسية والعقلية_على العكس_ تنسب الى الإنسان وليس الى العالم. وإن الذهن البشري يشبه مرآة غير مستوية تتلقى الأشعة من الأشياء وتمزج طبيعتها الخاصة بطبيعة الأشياء، فتشوهها وتفسدها[4].

عليه فأن الحاجز الأكبر للعقل البشري على الإطلاق يكمن في جمود الحواس وقصورها وخداعها، فالأشياء التي تمس الحواس لها الأسبقية على الأشياء التي لا تمسها مباشرة مهما بلغت أهميتها وعلوها. وأن الفهم البشري بطبيعته يميل الى التجريد، ويفترض جوهراً ثابتاً و واقعاً فيما هو عابر ومتغير، إلا أنه الأجدر بنا أن نجزء الطبيعة إلى أجزاء بدلا من تجريدها، من هنا نصل الى أن المادة ببنيتها وتغيراتها والفعل المحض و قانون هذا الفعل ، حسب رأي بيكون، هي الأساس التي ينبغي الإلتفات اليه وليست الصور، لأن الصور ليست إلا وهم العقل البشري[5].

([1]) المرجع نفسه، ص53.

([2]) كامل محمد محمد عويضة، مرجع سبق ذكره، ص37.

([3]) د.زهير الخويلدي، مرجع سبق ذكره.

([4]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص20–22.

([5]) المرجع نفسه، ص25.

- "أوهام الكهف": وهي الأوهام الخاصة بالإنسان الفرد، وأن إنسان يمتلك كهفاً خاصاً به يعترض نور الطبيعة و يشوهها، وقد يحث هذا بسبب الطبيعة الفريدة والخاصة لكل انسان، أو بسبب تربيته وعلاقاته الخاصة أو قراءاته و النفوذ اولئم الذين يُكِن لهم الإحترام و الإعجاب. أو الإنطباعات المختلفة التي تتركها الأشياء في أذهان مختلفة، مثل ذهن قلق متحيز، أو ذهن رصين مطمئن... وما الى ذلك من الأذهان المختلفة. عله فإن الروح البشرية، بمختلف ميولها عند مختلف الأفراد، شيء متغير وغير ثابت على الإطلاق، وهي اسيرة المصادفات العشوائية[1].
- "أوهام السوق": وهي من أكثر الاوهام إزعاجاً، تسربت تلك الأوهام إلى الذهن من خلال تداعيات الألفاظ والأسماء؛ فالناس يظنون أن عقولهم يتحكم في الألفاظ، في حين إن الحقيقة هي أن الألفاظ تعود وتشن هجوماً مضاداً على الفهم. وهذا ما جعل الفلسفة والعلوم "مغالطة وعقيمة_حسب رأي بيكون_ ، لأن الألفاظ تكونت في معظمها لكي تلائم قدرة العامة من الناس. وعندما أراد ذهن أكثر حِدة أو ملاحظة أكثر تدقيقاً أن تغير هذه الخطوط لتلائم التقسيمات الاصوب للطبيعة فإن الألفاظ تعترض طريقه وتقاوم التغيير. كما تنشأ هذه الأوهام نتيجة تواصل الناس وعلاقاتهم الإجتماعية، وعلى ضوء ما تجري بين الناس من التبادل واجتماع. فالناس تتواصل عن طريق القول، والكلمات يتم انتقائها بما يتلائم مع فهم العامة. وهكذا تنشأ مدونة من الكلمات "سيئة و بليدة" تعيق العقل بشكل كبير. ولا يمكن التحصن في هذه الإعاقة بالتعريفات والشروح التي قدمها المثقفون وهي لا تجدي نفعاً. فما زالت الألفاظ تعيق الفهم بشك واضح و تخلط في كل شيء و يوقع الناس في مجادلات فارغة ومغالطات لا حصر لها[2].
- "أوهام المسرح": وهي تلك الأوهام التي تتسرب الى عقول الناس عن طريق المعتقدات المتعدد للفلسفات المختلفة، فضلا عن القواعد المغلوطة للبرهان. ويرى بيكون أن كل الفلسفات التي تعلمها الناس وتراكمت على مدى التأريخ هي أشبه بمسرحيات عدة، تقدم و تؤدي على المسرح. وهي تخلق من نفسها عوالم زائفة و وهمية، ويرى بيكون بأنه لا يوجه نقده للفلسفات القديمة و الرائجة فحسب، بل أنه يذهب أبعد من ذلك ويرى بأنه ما زال بالإمكان تأليف الكثير من المسرحيات من نفس النمط وتقديمها بنفس الطريقة المصطنعة وإضفاء نوع من الإتفاق عليها. فما دامت أسباب أغلاطها موجودة[3].

([1]) عادل مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص22.

([2]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص28–30.

([3]) عادل مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص24.

من مجمل ما تقدم نصل إلى أن الإتجاه التجريبي يقوم على التجربة وما يأتينا عن طريق الإحساسات الخارجية ويعد بيكون من أبرز المدافعين عن هذا الإتجاه، كونه من الأوائل الذين تكونت علي يدهم هذا الإتجاه الفلسفي. فقد كانت الملاحظة الخارجية والتجربة العلمية العمود الفقري لفلسفته، ليكشف لنا منهجه الجديد الذي سماه "الأورغانون الجديد"، نسبتة إلى أبرز مؤلفات أرسطو ليعبر من خلاله عن رفضه لمنهج أرسطو ومنطقه، كمحاولة في أن ينحيه ويحل محله. فقد كان بيكون يسعى من خلال منهجه التجريبي إلى الحد من الإكتفاء بالمعرفة الجاهزة والبحث عن معرفة جديدة عبر منهجه الجديد. ويقف بيكون بفلسفته بين العقلانية المجردة والتجريبية الخالصة، ويرى أن ثروة الفكر تكمن في الجمع بين المَلَكتين: التجربية والعقلية. عليه فقد كان يدعو إلى منهج إختباري خالص، يتم إخضاع الاشياء والحوادث وغيره من القضايا الغير رياضياتية للتجربة، وذلك لإثبات صحتها.

من جانب آخر حدد بيكون مجموعة من المحددات والآفات التي تصيب المعرفة عند عامة الناس بشكل عام والمفكرين الفلاسفة والعلماء خصوصاً، وقد سماها بيكون بأسماء ومصطلحات مجازية وفلسفية حصرها في مصطلح (ألأوهامeidolon)،كما ويلخص تلك الأوهام التي تحاصر العقل البشري وتلاحقه في أربعة أنواع من الأوهام: أوهام القبيلة، أوهام الكهف، أوهام السوق، و أوهام المسرح.

2. الآراء النقدية لبيكون

يقف بيكون وقفة سلبية الى أبعد الحدود تجاه الجمود حتى أنه يخشى اليقين، ويرى بأنه إذا بدأ الأنسان تأملاته، باليقين، انتهى الى الشك؛ أما إذا بدأ بالشك وتحمله في الصبر لحين من الزمن، سوف تنتهي الى اليقين[1]. ومن هذا المنطلق يقوم بنقد الفلسفة الشكية عند اليونان القدماء ويقول في ذلك " أنني بذلك أُعلقُ الحكم وأقود الى ما يسميه اليونان الأكاتالبسيا(acatalepsia الشك)، غير أن ما أقصده وما أدعو إليه ليس الأكاتالبسيا "الشك" (إنكار قدرة العقل على فهم الحقيقة)، بل اليوكاتالبسيا "الإعتقاد السليم" (تأهيل العقل للفهم الصحيح)، فأنا لا أنتقص من سلطة الحواس بل أُعينها بمساعدات، ولا أستهين بالفهم بل أُنظمه، و أن نعرف بقدر ما يلزمنا أن نعرف ثم نرى أن معرفتنا ناقصة خيرُ من أن نرى أن معرفتنا كاملة ثم لا نعرف أي تلزمنا معرفته"[2].

([1]) أميل برهيية، تأريخ الفلسفة–القرن السابع عشر، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص36.

([2]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص78.

ويرى لو إن كل العقول من كل العصور إجتمعت وتآزرت جهودها جميعاً فلن يتحقق تقدم كبير في العلم عن طريق "الإستباقات"، ويعود ذلك الى الأغلاط المتوغلة في جِبِلة العقل الأولى، التي لا يمكن الشفاء منها بأية جهود أو علاجات لاحقة مهما بلغت عبقريتها. وأنه لمن العبث أن نتوقع أي تقدم ملحوظ في العلوم عن طريق إضافة أشياء جديدة على القديمة وتطعيمها بها. من هنا فإذا أردنا ألا نظل ندور الى مالا نهاية في حلقة مفرغة فإن الحل، حسب رأي بيكون، هو البدأ من بداية جديدة تقوم بدراسة الأسس نفسها. وهذا لا يعتبر المساس بكرامة المؤلفين والمفلاسفة القدماء كما يراه بيكون، وأنه ليست في مجال المقارنة بين العقول والملكات، بل مقارنة في الطرق والمناهج[1].

كما ويمكن تلخيص الآراء النقدية لبيكون في الإنتقادات التي وجهها الى الإنسيين الذين لايرون في العلوم سوى موضوع برسم الإنشاء الأدبي، كما وجه بسهام نقده الى المدرسيين الذين (يحبسون) كل نفسهم في أرسطو مثلما (حبسوا) أجسامهم في كنائسهم، وانتقد ايضاً اولئك الذين يرون في العلم شيئاً جاهزاً، شيئاً من الماضي، وانتقاد جميع المتخصصين الذين يشيحون عن الفلسفة الأولى، وقيدوا أنفسهم ضمن إختصاصاتهم[2]. و من ناحية أخرى ينتقد بيكون الأفكار التي تفرز عنها إهمال التجربة وعدم الإلتفات اليه، بل و تشويهها أيضاً، ويرى بأنه بالكاد تجد في فيزيقا أرسطو أي شيء عدا مصطلحات المنطق، والتي أعاد إستخدامها من جديد في ميتافيزيقاه تحت تسمية أكثر وضوحاً، ويرى بأن أرسطو كان يزعم أنه "واقعيrealist" أكثر منه "إسمياًnominalist"، و إن إلتجائه الى التجربة بعض مؤلفاته لم يكن إلا نوع من الإخداع، لأنه قد حسم أمره مسبقاً ولم يستند الى التجربة ولم يجعله أساساً لبناء أحكامه و مبادئه، بل يعتسف أحكامه اعتسافاً ثم يلوي بالتجربة لكي يتلائم من أفكاره. إلا أن نقده كان أكثر صرامة بخصوص مسألة التجربة تجاه تابعه (المدرسيين)، ويتهمهم بأنه هجروا التجربة تماماً ونفضوا أيديهم منها[3].

وفي نقده للمنطق السكولائي–المدرسي بشكل عام والمنطق الأرسطي على وجه الخصوص، يرى بأن منطقه يقوم على القياس، ويركز اهتمامه على استنتاجات لقضايا خاصة من قضايا أعم، إلا أنه يتجاهل كيفية الوصول الى هذه القضايا العامة. و أن ارسطو استخدم الاستنتاج كثيرا في منطقه الذي يتمثل في استخلاص نتيجة معينة من عبارات أولية بالاعتماد على الاستدلال وجعل من القياس نمط استنتاجي

([1]) المرجع نفسه، ص18.

([2]) أميل برهيية، مرجع سبق ذكره، ص37.

([3]) فرانسيس بيكون، الأورجانون الجديد– ارشادات صادقة في تفسير الطبيعة، مرجع سبق ذكره، ص32.

يتكون من مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة. فضلا على أن بيكون يصف التعميم من قضايا خاصة كما يتمثل في المنطق المدرسي متسرع و سطحي. هذا من جانب، ومن جانب آخر، يرى بيكون بأن منطق أرسطو يعاني من ثغرات أساسية ويصفها بأنه منهج تسجيل لمعرف سبق الحصول عليها، وليس منهج اكتشاف يوحي ببحث أبعد، ولا يمكن أن يقود الى سيطرة عملية على الطبيعة، أو أن يصل الى مرحلة اكتشاف علوم جديدة[1]. و يذهب بيكون في نقده الى ابعد الحدود، إذ أنه يرى بأن ارسطو ومذهبه مسؤول عن تأخر العلوم الطبيعية، لأنه لا يفيد في شيئا في الكشف العلمي. وإن القوانين العلمية من شأنها توجيه الإنسان على حكم مسبق على الأحداث قبل وقوعه، ومنطق أرسطو لا يعين على شيء من ذلك، لأنه منطق قياسي، والقياس المنطقي وسيلة عقيمة في كثير من وجوهه، لأننا نضطر فيه أن نسلم بمقدماته تسليماً لا يتحمل الشك فيه، وعلى ذلك نجنا نتنقل من قضية إلى أخرى تلزم عنها دون أن يؤدي ذلك الى علم جديد. من هنا حاول بيكون قبل إقامة البناء الجديد، أن يزيل ركام القديم وأنقاضه، وإن الركام القديم ليست إلا مجموعة من الأخطاء، لو وقع فيها المفكر، أدت به حتما الى الخطأ في النتائج التي ينتهي إليها تفكيره[2].

ويقترح بيكون بعد نقده هذا منهجاً يكتشف تقارير أحدث وأصدق عن الواقع، ومن الضروري أن يستبدل منهج الإستقراء إلا أن هذا الإستقراء ليس الإستقراء الأرسطي، لأنه يقوم على العد البسيط للأحوال التي يشاهد فيها حضور طبيعة ما. ولما كان العد لا يمكن أن يكون تاماً، فإن هذا الإستقراء مستحيل التحقيق، وإن نتائجه ظنية دائماً. إلا أن الإستقراء الذي دعا إليه بيكون فيقوم على أساس الدليل" إذا انتفى السبب انتفى المسبب" أي إذا إستبعدت العلة لن يبقى المعلول. والإستقراء عنده في جوهره عملية تحليل وإستبعاد تهدف إلى الحصول على الطبيعة التي نتجت عنها وعن صورتها، متميزة عن غيرها من الطبائع[3].

وهذا تسجيل ما نلاحظه يحدث معاً في الطبيعة، بطريقة تجريبية ممنهجة يستند الى ضروب(الرفض والأبعاد الصحيح)، فعلى سبيل المثال أذا لاحظنا اقتران عناصر مثل (أ ، ب ، ج) فلا يكفي أن نسجلها فقط، ونواصل تسجيل وقائع خاصة الى الأبد، بل علينا أن نجري تجارب تبعد العناصر كل بدوره وبطريقة منجية، حتى نصل الى نتيجة تمكننا من أكتشاف أن (أ) وحدها أو (ب) وحدها ضرورية

([1]) ستيوارت هامبشر، مرجع سبق ذكره، ص19.

([2]) د.أمل مبروك، الفلسفة الحديثة، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2011،، ص128.

([3]) د.عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 1984، ص397.

لاحداث (ج) وليس (أ)و(ب) معاً. واذا وجدنا أنهما ضروريان معاً فيجب علينا إيجاد مشترك أعم بفضله يعقبان دائماً ب(ج). من هنا تظهر ضرورة الحاجة الى تحليل المدلولات وتصنيفها الذي نادى به بيكون[1].

بناءاً على ما تقدم يمكن القول بأن بيكون قد حدد موقفه من اليقين والجمود، وأنه يجب على الإنسان تأملاته بالشك لكي يصل في النهاية إلى اليقين والمعرفة الحقة، وليس العكس. كما قام بتوجيه بإنتقادات لازعة الإنسيين والمدرسيين الذين يؤمنون بالقياس لإقامة منطقهم، ويركز اهتمامهم على استنتاجات لقضايا خاصة من قضايا أعم، إلا أنه يتجاهل كيفية الوصول الى هذه القضايا العامة، كما ويتهمهم بأنهم حبسوا أنفسهم داخل المنطق الأرسطي كما حبسوا أجسادهم في كنائسهم. فضلا عن توجيه نقده إلى النظريات التي تقوم على إستبعاد التجربة وإهمالها، والذين يعتبرون العلم منظومة جاهزة وصلت إلينا من الماضي وقيدوا أنفسهم ضمن إختصاصاتهم. وعلى ضوء إنتقاداته يقدم بيكون منهجاً إستقرائياً يقوم على أساس الدليل ويجزم بأنه عند إستبعاد العلة لن يبقى المعلول. وهذا يختلف عن الإستقراء عند أرسطو الذي يقوم على العد البسيط للحالات التي يكون فيها الطبيعة حاضراً، إلا أن هذا الإستقراء مستحيل التحقيق، حسب رأي بيكون، لإن نتائجه ظنية دائماً

ثانيا . الفلسفة العقلية عند ديكارت

في عام 1628 أُرسل الى العالِم الفيلسوف الشاب والضليع في الرياضيات رينية ديكارت[2] من قبل أحد الكردينالات للمشاركة في أمسية فكرية، هذه الأمسية تكون فيما بعد أحد أهم الأمسيات المشهودة في تأريخ الشك، وحضر في الأمسية مجموعة من المفكري تلك الأيام لتقديم محاضرة عن معارضة الفلسفة

([1]) ستيوارت هامبشر، مرجع سبق ذكره، ص19-20.

([2]) رينية ديكارت Descartes Rene ولد في 1596 في لاهاي تابعة لاقليم توران بفرنسا، وتوفي في 1650 في سويد، ونقلت جسمانه الى باريس عام 1666. تلقى تعليمه في المدارس اليسوعية في مدرسة لافليش، كا ابوه يوكيم ديكارت مستشاراً في برلمان الاقليم البريتانيBretagne الفرنسي.التحق بالجيش الهولندي عام 1618، وبدأت بكتاباته منذ 1634 ، وله مؤلفات عدة : أهمها (مبادئ الفلسفة، مقال في المنهج، تأملات في الفلسفة الأولى...) وغيره من المؤلفات التي تركت أثرا عميقاً من بعده. Simon Blackburn, The Oxford Dictionary of Philosophy-Oxford Paperback Reference, Oxford University Press,Oxford,1996,p 100-103

السكولائية[1] القديمة. وكان هناك الربوبيين[2] المتشككة، الذين يدعون بأنهم لايعلمون شيئاً على الأطلاق وأنهم أعتنقوا فكرة الله وحتى خصائص الكاثوليكية على نحو أعمى. ولاقت المحاضرة قبولا و استحساناً من قبل الحاضرين، إلا ديكارت الذي كان وحده متعاظاً على نحو ظاهر, وعند سؤاله عن سبب ذلك ، بَينَ أنه على الرغم من الموقف السلبي تجاه السكولائية. إلا أنه غير ملزم بقبول جميع الحقائق المتعلقة بتخمين معقول يتوقف على ارتياب أجوف. ودخل في مجادلة حول أننا لا نستطيع الوثوق بمعلومات تأتينا عن طريق الحواس و فسرها العقل، وتزعم بأنه اكتشف طريقاً آخر للحقيقة، لايعتمد على الحواس أو خدع العقل، وتستطيع أن تقدم برهان على وجود الله. وأشار الى أنه لتعيين الحقيقة، ينبغي علينا اكتشاف إن كان هناك ما نعلمه على وجه يقين، ونبدأ بالبناء عليه، تماما مثل الهندسة القديمة. ولكن كيف؟ وكانت الجواب من قبل ديكارت بالشك[3]. من هذا المنطلق نقسم المبحث على مطلبين، إذ يتناول المطلب الأول موضوع الفلسفة العقلية عند ديكارت. أما المطلب الثاني فخصصناه لموضوع النقد المعرفي وإثبات الوجود.

1. فلسفة ديكارت ومنهجيته

يعد ديكارت من أعظم فلاسفة القرن السابع عشر كما ويعد عند الكثير من المفكرين، مؤسس الفلسفة الحديثة أو أبو الفلسفة الحديثة[4] ومن الأوائل الذين إرتادوا الإتجاه العقلي. فقد كان فيلسوفاً منعزلا ومفكراً أصيلاً يمتلك لحظات من وحي خالص، والقدرة على التعبير عن آراءه بوضوح كبير، وكان ديكارت الذي درس في (المدارس اليوسوعية)[5] يعتز اعتزازاً خارقاً بالعقل وثقته العالية بقدرات عقله. وكان يؤمن بوجود

([1]) الفلسفة السكولائية، أو المدرسية: أطلق هذا اللفظ على الذين يدرسون علم اللاهوت، وأصبح لفظ "مدرسية" يشتمل، في معناه الواسع، على جميع المناشط الفلسفية والفنية واللاهوتية. للمزيد أنظر: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص587.

([2]) هي العقيدة القائلة يوجود رب شخصي، وهو علة العالم. من منظور كانط هي المذهب الذي يظن أن في إمكانه تحديد طبيعة الله بالتماثل، يختلف مع الألوهية قاصداً بذلك المذهب الذي لا يعتقد أنه يستطيع أن يحصل بالعقل سوى معرفة وجود الله. للمزيد أنظر:الربوبية: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الثالث، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص1448.

([3]) جينفير مايكل هيكت، تأريخ الشك، ترجمة عماد شيخة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014. ص536.

([4]) برتراند رسل، تأريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة،ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأسكندرية، 1977،ص104.

([5]) حركة اليسوعيين أو الجيزويت، هم جماعة أخذوا على عاتقهم محاربة الإلحاد والفساد أينما كان، سواء في المجتمع أو الكنيسة. وكانوا يعتقدون بأن الدين لايعني "الإيمان القلبي" فقط، بل يقوم أيضاً بالعمل الإنساني والإجتماعي، من أجل خير كل الناس. ومن أجل ذلك قاموا بفتح مدارس خاصة بهم لغرض تربية النفوس تربية صالحة. ويرجع نأريخ الحركات

نوع من التوافق بين الدين والعلم الحديث[1]. من هنا فإن فلسفته تقوم على تمجد العقل التركيز على قدرة العقل لفهم الأمور والحقائق، لذلك يمكن وصف فلسفته بالفلسفة العقلية. ولكن ماهي الفلسفة العقلانية؟ وماهي المكانة التي تحتله العقل فيها؟

العقلانية Rationality أو الفلسفة العقلية بشكل عام هو ما يدل على سلطان العقل، وإرجاع الأشياء إلى أسباب معقولة، ويمكن أن يفهم من كلمة الإنسان العقلاني عموماً الشخص الذي يؤكد قدرات الإنسان العقلية ويؤمن بقيمة العقل والحجة العقلية وأهميتها. والعقلانية أساساً هي الإتجاه التنويري الذي يثق في الإنسان وقدراته، فيخرجه من تحت هيمنة أية وصاية كانت ويجعل منه يبحث عن الحقيقة بلا سلطة تفرضها. كما وحررت العقلانية الإنسان من الأفكار الدوغمائية والآيديولوجيات التسلطية والآيدولوجيات السياسية التي تقف عائقاً أما الإنطلاق بعقله إلى آفاق الحرية التي هي تاج التجربة الإنسانية([2]).

تأسيساً على ذلك فإن العقلانية تعني الرجوع إلى الإستدلال الخالص مصدراً للمعرفة، أي أن بإمكان الإنسان الوصول إلى معرفة جوهر العالم دون الرجوع إلى أية مقدمات تجريبية_كما يؤمن بيكون وغيره من التجريبيين_. ويقف الإتجاه العقلي بوجه الدعاوى الدينية، ويرفضخوارق الطبيعة، والمعجزات، محاولا إختبارها بمحك عقلي. ويمثل الإتجاه العقلي في تأريخ الفكر الحديث عدد من الفلاسفة، لعل أبرزهم ديكارت([3]).

من خلال ذلك يمكن إعتبار ديكات من الرواد الذين وضعوا الفلسفة العقلانية التأملية الحديثة، فقد كان عالما رياضيا شهيراً خصوصاً بعد اختراعه لـ(الأحداثيات الديكارتية) وكانت الفلسفة أحد أهتماماته الفكرية وأهتم بمجالات علمية أخرى كعلم الفلك والأحياء. وكان من الفلاسفة الذين لا يريد أن يؤمن بشيء حتى يفحص السبب الذي يجعله يؤمن به، وكان يحب طرح الأسئلة الغير مألوفة، أسئلة لا يطرحها أناس عاديون، ويعتقد ديكارت أنه من الجدير بالمحاولة أن تفكر في ما يمكن أن تكون متأكدا في معرفته، وطور منهجاً من أجل ذلك، يعرف هذ المنهج بالمنهج الشك الديكارتي[4].

التبشيرية المسيحية في مختلف انحاء العالم الى هذه الجماعة. د.مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه_دراسة تحليلية ونقدية، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص67.

([1]) ستيوارت هابشر، مرجع سبق ذكره، ص67.

([2]) د.محمود محمد على محمد، مفهوم العقلانية عند ستيفن تولمن، مطبعة محسن، سوهاج، 2008، ص5.

([3]) د.راوية عبدالمنعم عباس، ديكارت أو الفلسفة العقلية، دار المعرفة الجامعية، أسكندرية، 1989، ص29-30.

([4]) نايجل واربرتون، مختصر تأريخ الفلسفة، ترجمة محمد مفضل، تقديم علي حسين، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 2019، ص99.

ولكن ماهو منهج أو خطة الشك وما معناها؟ هل إنها تعني التردد في قبول حكمة من الأحكام؟ أو التأرجح بين القبول والرفض والإستمرار فيه؟ وهل هي مجرد افتراض حكم من الأحكام أو تصوره؟ جواباً على ذلك فإن الشك عند ديكارت يعني عدم التردد والعزم على اعتبار هذه الأحكام وأن لا تضعها موضع الإهتمام و مكانتها من الخطأ أو الصواب. لأن أي اهتمام من هذا القبيل أي تقدير لمرتبة الأحكام من الخطأ والصواب، يعرض اليقين الى الدمار. من هنا فإن الشك هو العزم على عدم الإلتزام بالأحكام السابقة، سواء كانت صادرة عن تعاليم ماضية لم نتبين من صحتها أو عن الحس أو عن الخيال[1].

ان روح فلسفة ديكارت و منهجيته تقوم على أنه يحاول التخلص من كل شوائب الأحكام المتعلقة بالذهن، واجراء مراجعة نقدية لما يحمله الذهن من الأفكار، على أن لا يأخذ شيئاً منها مأخذ الحقيقة إلا ما يتصف بالوضوح الكامل، ويمكن القيام بهذه المهمة اذا اعيدت الأشياء الى أصولها، وقبل كل شيء يجب برهنة أن الذات الإنسانية جوهر مفكر. وهذا جعل من ديكارت نقطة انطلاق (للميتافيزيقيا الحقة)، والتي تخرج منه مجموعة النتائج، أولها أن الأنسان يفكر، وإنه موجود من حيث أنه مفكر، أي جعل من الذات المفكرة "آنيَته" أو "ماهيته" الي وصل الى مستوى اليقين. و إستخلص ديكارت من هذا المبدأ جميع الحقائق الأخرى، استخلص التمييز بين النفس والجسم، وأن جوهر النفس هو الفكر، وأن جوهر الله هو الكمال، وأن جوهر الجسم هو الأمتداد، عليه فإنه انطلق من النفس الى الله مباشرة وبغير واسطة[2].

حيث أن ديكارت يرى إن أي شخص أراد أن يكون باحثاً مخلصاً عن الحقيقة فمن الضروري أن تشك في كل شيء لأقصى درجة ممكنة على الأقل مرة واحدة في حياتك[3]، ويقول في ذلك " لا أقبل صحة شيء على أنه حق، إلا إذا تأكدت يقيناً على أنه كذلك دون أدنى شك"[4]. ولكن كيف نعرف حق المعرفة ان ما نراه هو حقاً صحيح؟ كيف نثق في الحواس والتي هي المصدر الأساس لكل ما يحيط بنا؟ أليس مذاق الطعام يختلف في المرض؟ فأي مذاق هو الصحيح؟ حسب ديكارت فإن الحواس تخدع من آن لآخر ومن الحكمة ألا تثق تماما فيما خدعك ولو مرة واحدة.[5]، وأن مريض اليرقان تخدعه عيناه دائما،

([1]) د.نجيب بلدي، ديكارت، دار المعارف، القاهرة، ط1987،2، ص89.

([2]) د.عبدالله إبراهيم، المطابقة والإختلاف:المركزية الغربية –اشكالية التكوين والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، بيروت،1997، ص75–79.

([3]) رينية ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، المركز القومي للترجمة، القاهرة،2009،ص72.

([4]) رينية ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأسكندرية، ط3، ، 1985، ص190.

([5]) رينية ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص72.

فيرى كل شيء أصفر اللون، و إننا ننظر الى الشمس فنراها صغيرة للغاية، في حين أنها اكبر من الأرض بأضعاف[1]. و قد يكون كل واقعك حلم وأن هذه اللحظة التي نعيشها قد لا تكون حقيقياً، بل جزء من حلم، أو قد يكون كل ما تراه أو تشعر به هو تدبير من (شيطان ماكر) يريدك أنت تبقى تحت سيطرته. وفي بحثه هذا يستند على أنك في الحلم لا تدرك أنك تحلم وأن المنطق هو نفسه(2+3=5) و أن للمثلث ثلاثة أضلاع،([2]) ومادام أننا كثيراً ما خدعنا من قبل حواسنا، وافترضنا شيئاً صحيحاً لم يكن صحيحاً، ونحن في مثل هذه اللحظات، لانعرف بداهة أننا قد خدعنا. عليه يمكن في أية لحظة أن نفترض أننا خدعنا و أننا نستطيع الشك بصحة وجود ما يبدو في العالم حولنا، ولكن هناك شيئاً واحداً لا نستطيع الشك فيه وهو أننا نشك، لأننا إذا كان علينا أن نشك في ذلك، فإن علينا أن نظل شاكين أيضاً[3]. ففي هذه اللحظة يمكن أن تسأل نفسك هل أنت متأكد أنك مستيقظ؟ جواباً على ذلك لا يوجد سبيل أو طريقة من التأكد أو نفي الواقع المعاش وإن الشك يمكن أن يساورك في كل شيء إلا في حالة واحدة وهي الشك في أنك تشك لأن ذلك يتنافى مع المنطق، لأننا نتيقن من أننا لدينا وعي للتفكر[4]، لذلك قال ديكارت " أنا أفكر إذا أنا موجود"[5] والذي يعرف بمبدأ "الكوجيتو" الديكارتي. ويقول ايضاً "انني لم أعرف شيئاً يخص ماهيتي إلا إنني شيء يفكر، أو شيء له في ذاته ملكة التفكير"[6]. وإن أي شيء يفكر لابد له أن يكون شيئاً يشك ويفهم ويتصور ويثبت وينكر ويتخيل ويحس،لأن جميع هذه الأفعال تدخل في مجالات التفكير[7]. وتوصل الى أنه لايمكن أن يكون العالم المادي المعاش جزءاً من خدعةً كبرى، إلا أنه لم يكن يمانع أن يطرحه للمناقشة. من هنا فأن ديكارت ينقد تفكير الفلاسفة القدامى عامة و أرسطو على وجه الخصوص حيال فكرة الوجود، وبمبدئه هذا يضع حداً لتفيكرهم الذي كان يرى بأن للوجود المادي الأسبقية أو الصدارة على الوجود الفكري أو الذهني، في حين أن ديكارت يؤمن بأن للوجود الذهني أو الفكري الصدارة على الوجود المادي، وأن الوجود المادي تابع له[8].

([1]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص88.

([2]) رينية ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص73.

([3]) ستيوارت هامبشر، مرجع سبق ذكره، ص70.

([4]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص92.

([5]) رينية ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سبق ذكره، ص214.

([6]) رينية ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص48.

([7]) المرجع نفسه، ص88.

([8]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص93.

كل ذلك يوصلنا الى أن منهجه يرمي الى عدم تقبل أي شيء كحقيقي إذا كان هناك أدنى امكانية بأنه ليس كذلك. أي غربلة العقل والتخلص من الأفكار الخاطئة، وشبهه بكيس مليئة بالتفاح اختلط فيها الطازج بالفاسد، ولكنك لاتعرف أية تفاح فاسد، وكل ما تهدف اليه هو الأبقاء على التفاح الجيد والغير متعفن في الكيس، لعل ايسر السبل لتصل الى هذه النتيجة هي أن تقلب كيس التفاح وتفرغه ، ثم تفحصها الواحدة تلو الأخرى، وتضع التفاح الجيد فقط في الكيس. وخلال العملية يمكن أن ترمي بعض التفاح الجيد تعتقده بأنه فاسد، ألا ان النتجية انك تحتفض بالتفاح الجيد في الكيس. وتمثل هذه الطريقة الى حد كبير المنهج الشك الديكارتي، أي تفحص كل ما تعتقده و تؤمن به في عقلك و تفحصه و تعرضه للشك الواحدة تلو اخرى،أي غربلة العقل والتخلص من الأفكار الخاطئة[1].

ويعتبر هذا نقدا لازعاً لفلسفة أو الإتجاه (اللاأدرية)[2]، فمع أنه يتوافق في الكثير من آراءه خصوصاً مبدئه الشكي مع (اللاأدريين)، خصوصا في عدم الثقة بالحواس والشك في الواقع المحسوس والعالم المعاش على أنه عالم حقيقي، كما سعى مسعاهم في أنه لا يمكن الإطمئنان الى الذاكرة، التي هي بمثابة خزانة التجارب والمعارف، لأن هناك أناس يغلطون حتى في أبسط الأمور الهندسية وأن الفرد كغيره من الناس معرض لأن يقع في مثل هذه الزلل والأخطاء. عليه يمكن الجزم بأنه يشاطر اللاأدريين فيما لهم من أسباب التشكك، ألا أن ديكارت لم يكن لاأدرياً قط وكان يبحث عن قاعدة متينة و موثوقة يقيم عليها صرحه عن العلم وإيجاد مبدأ ضروري لا يقبل الشك[3]. اذ ينقد ديكارت اللاأدريين بقوله " ما كنت في ذلك (الشك) مقلدا اللاأدرية الذين لايشكون إلا لكي يشكوا، ويتكفلون أن يظلوا دائما حياريا، فإنني على العكس، كان مقصدي لا يرمي إلا إلى اليقين، وإلى أن أدرع الأرض الرخوة والرمل، لكي أجد الصخر أو الصلصال"[4].

ويحدد ديكارت موقفه من الفلسفة اليونانية في العصور القديمة ومن الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى، اذ جدد القديم وحرر الوسيط، والتحرير من جميع الأغلال التي قيدت الفكر الإنساني، وأخذ

([1]) نايجل واربرتون، مرجع سبق ذكره، ص99-100.

([2]) اللاأدريةAgnosticism: كل موقف ينكر كلياً أو جزئياً إمكان معرفة حقيقية بالأشياء أو البت في المسائل الميتافيزيقية مثل، وجود الله ونهاية الكون وخلود الروح وما إلى ذلك. إكتسبت اللاأدرية شكلها التقليدي في فلسفة هيوم وكانط وكنت وسبنسر. أنظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004، ص387.

([3]) رينية ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سبق ذكره، ص207.

([4]) المرجع نفسه، ص207.

يفكر تفكيراً حراً أمتد تأثره حتى عصرنا الحالي[1]. وهو أول من وضع ثنائية الإنسان، النفس والجسد، وإن أول ما يستنتجه ديكارت من مبدئه "أنا افكر،إذا أنا موجود" هو تمييزه بين النفس والجسم. والنفس عبارة عن الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة، أما الجسم أو البدن فهو الجوهر المتحيز الذي يتخذ شكلا و وضعاً، ويمكن تمييز الإختلاف بين النفس والبدن من خلال أن البدن بطبيعته قابلة للقسمة، إلا أن النفس غير قابلة للقسمة[2]. وعندما ننظر في أنفسنا فلا يمكن لنا أن نميز في نفسنا أجزاءاً[3].

وعند النظر في أفكار النفس تقسم تلك الأفكار الى ثلاثة أنواع: أفكار خارجية أو أفكار حسية، وأفكار مصطنعة، و أفكار فطرية. فبينما تتكون الأفكار الخارجية أو الحسية من الأفكار التي يستفيدها الإنسان من الأشياء والموجودات عند اتصاله بالعالم الخارجي،عن طريق الحواس الخمسة،و تكون صادرة عن الحواس وتدل موضوعات خارجية تشبيههامثل أفكار اللون والطعم والشكل ...الخ[4]. أما الأفكار المصطنعة فهي تلك الأفكار التي يكونها الخيال على أساس تلك الأفكار الخارجية السابقة بتركيب مبتكر يجمع بعضها الى بعض أو أجزاء بعضها الى أجزاء البعض الآخر. أما الأفكار الفطرية فهي الأفكار التي نتعرف عليها بمجرد النظر في طبيعتها، مثل أفكارنا عن الوجود و النفس و الحقيقة والإمتداد فضلا عن الله. وتلك الأفكار ثابتة في النفس، لا شك في وجودها، مع عدم أعتبار لوجود موضوعات تقابلها في الوجود أو لا. أذ يبدوا ان النفس لا تحتاج الى الحس والخيال للتفكير في ذاتها، وفي وجودها، وفي امان وجود كائن يتصف بالكمال، فضلا عن التفكير في الامتداد الذي يدرسه علم الهندسة، وعند تمعننا في وجود الأفكار في النفس، تبين أن له معنيين مختلفين. فلكل فكرة وجود صوري أو فعلي، حقيقة صورية أو فعلية، ولكل فكرة وجود موضوعي أو تمثيلي، حقيقة موضوعية أو تمثيلية، فكل فكرة حاضرة في نفس بالفعل، في وقت معين، بعد أفكار وقبل اخرى. عليه فإنه لا يوجد اختلاف بين الأفكار ذاتها في هذا المعنى. فكلها تحمل صورة أو طبيعة الفكر، ولكل منها ملابسات زمنية فعلية معينة. أما من ناحية وجودها الموضوعي والتمثيلي، فالأفكار تختلف وتتفاوت، وكل فكرة تمثل موضوعاً معيناً وتلك موضوعاً آخر وتلك مربعاً أو مثلثاً أو حصاناً أو انساناً، أو ملاكاً أو الها[5]. في هذه النقطة تبدأ النقاش بين

([1]) رينية ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سبق ذكره، ص44.

([2]) أن الإختلاف الأساسي عن فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو تكمن في هذه العبارة ، من حيث أن هناك نفس خيرة و نفس شريرة وعليه يرى أفلاطون ضرورة أن نعلم النفس لكي تكون عادلة.

([3]) رينية ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سبق ذكره، ص125 – 127.

([4]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص112.

([5]) د.نجيب بلدي، ديكارت، دار المعارف، القاهرة، ط1987،2،ص105-108.

ديكارت وهوبز من حيث صفة الإمتداد وهذه الصفة يراها هوبز تخص الأجسام، أي الأجسام هي التي لها خاصية الإمتداد مما يجعل بهوبز بطرح سؤال هل من الممكن للملائكة والآلهة والشياطين أن تكون لهم خاصية الإمتداد؟ بعبارة أخرى هل يمكن إعتبارهم أجسام؟ لأن الأجسام موجودة تتحرك ولها صفات وخواص فيزيائية وبغير ذلك ليسوا أجسام وبالتالي لا وجود لهم أو لا نستطيع إثبات وجودهم.

من كل ما تقدم يمكن القول أن الفلسفة العقلية هو كل إتجاه فكري يؤمن بقدرات العقل ويجعل منها معياراً لقياس و فحص المعرفة للتحقق من صحتها. وهي تمجد العقل. ويعد ديكارت من أبرز الذين يمثلون الإتجاه العقلي. كونه من أعظم فلاسفة القرن السابع عشر ويمكن إعتباره أب الفلسفة الحديثة ومن رواد الذين إرتادوا الإتجاه العقلي. فلم يكن ديكارت يؤمن بأي شيء قبل أن يفحص السبب الذي يجعله يؤمن به، مما دفعه إلى تطوير منهجاً خاصة أجل ذلك، يعرف المنهج الشك الديكارتي. ويؤكدا هذا المنهج على عدم التقييد بالأحكام السابقة أية كانت مصدرها.

من هنا فان روح فلسفته ومنهجيته تقوم على إجراء مراجعة نقدية لما يحتويه الذهن من الأفكار والتخلص من أية شوائب المتعلقة بالذهن، ولا يأخذ أية أفكار مأخذ الحقيقة إلا ما يتصف بالوضوح الكامل، وأول النتائج التي يمكن إستخراجها في تطبيق هذا المنهج هو أن الأنسان يفكر، وإنه موجود من حيث أنه مفكر، وإستخلص ديكارت من هذا المبدأ جميع الحقائق الأخرى. يمكننا الجزم بأن ديكارت من المفكرين النقديين الذين لم يرضخوا للأحكام السابقة دون فحصها وتحليلها. من هنا فإن ديكارت كان سباقاً في ذلك فقد افرغ سلة عقله من كل الأفكار والمعتقدات لكي يميز بين خطأها و صوابها قبل أن يجزم بأنها أفكار يقينية. عليه يمكن القول أن الغاية من منهجه تكمن في عدم تقبل أي شيء كحقيقي إذا كان هناك أدنى امكانية بأنه ليس كذلك. أي غربلة العقل والتخلص من الأفكار الخاطئة.

2. النقد المعرفي وإثبات الوجود

يبدأ ديكارت نقده للمعرفة بالشك أولاً في المعرفة التي تأتينا عن طريق حواسنا الظاهرة، ورفض بالتالي أن تكون هذه الحواس مصدراً للمعرفة، فقد لاحظ أن هذه الحواس تكون خداعة في بعض الاحيان، وهي لا تنقل لنا بأمانة كل ماهو عليه الشيء بالكامل. ومن الحكمة أن لا نثق بالذي خدعنا حتى ولو لمرة واحدة. كما أن شكه على المعرفة الحواسية لم يقتصر على الحواس الظاهرة فقط، بل تعداه إلى

"الحواس الباطنة"، ورأى أن هذه المعرفة أيضاً لا تحظى بالمصداقية في جميع الأوقات وهي لا تقنع العقل لدى كل الناس، فقد يصدقها البعض و يرفضها البعض الآخر[1].

كما يوجه ديكارت بسهام نقده الى الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية من خلال نقده لنظرية المعرفة، حيث أن المعرفة في نظر أرسطو تتشكل من خلال تشكل صورة الشيء في العقل، فإذا كان العقل يدرك صور الأشياء، فإن تلك الصور تساهم بشكل أساسي في تشكل العقل، وهكذا يصبح العقل كموضوعه ولذلك كان معيار الحقيقة في الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأرسطية على حد سواء هو معيار التطابق أو التماثل بين الفكرة والموضوع. إلا أن ديكارت غير هذا التصور للمعرفة وكيفية تحققها رأسا على عقب، و أفرغ العقل والعالم من الصور، وألقى بمبدأ التماثل جانبا وبدله بعملية التمثل الذهني. وقام ديكارت بانتقال المعرفة إلى مستوى أرقى من مستوى الإحاطة بالموضوع، و لم يقف عند حدود تمثل الموضوع، بل جعل من التمثلات الذهنية نفسها موضوعا للتأمل العقلي، وبذلك دفع بالعملية المعرفية إلى مستوى (الميتاmeta) وهو التفكير في التفكير، وقادته تجربته الوجودية إلى اكتشاف بعد جوهري جديد من أبعاد الوجود الإنساني، ألا وهو الوعي، وهو يحتل مكانا كبيرا في النسق الفكري الديكارتي وهو يمثل الصفة المميزة للإنسان، والعنصر الحاسم في تصوره لمفهوم الشخص، وتكمن وظيفته في كونه يمكننا من الإدراك الفوري للذات المفكرة[2].

وتعرض منطق أرسطو بنظريته في القياس لنقد شديد من قبل ديكارت ويرى بأن القياس الأرسطي عقيم بمعنى أن نتيجته ليس فيها من جديد أكثر مما هو موجود من حقائق مسبقة، من هنا فإن ديكارت يرى أن القياس وسيلة لعرض الحقائق التي نعرفها من قبل لكنه ليس وسيلة لإكتشاف حقائق جديدة[3]. كما و نـقد المنطق الإستقرائي الذي كان في بداية نشأته خصوصا من قبل بيكون الذي عاصر ديكارت، وسبب انتقاد ديكارت لأن بيكون كان يهدف من كتاباته الى انقاذ علم الطبيعة في أوروبا من إهمال الملاحظات الحسية، والتجارب على الجزئيات، إلا أن ديكارت كان يطمح في اكثر من ذلك واراد منهجا يصبح أساسا لكل العلوم[4].

([1]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص88-89.

([2]) باسم توفيق، جدوى الفلسفة كحل للفوضى الفكرية، مقال منشور على موقع جريدة الراية القطرية على الأنترنت، على الرابط الألكتروني التالي: https://cutt.us/Cb8So تأريخ الزيارة 2020/2/20.

([3]) د.مصطفى ابراهيم مصطفى، الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم، دار الوفاء للطباعة والنشر، الأسكندرية، 2000، ص76.

([4]) المرجع نفسه، ص77.

وطال نقده الفلسفة عامة و الفلسفة التي تعلمها على ايدي معلميه الذين درس عندهم في مدرسة اليوسوعيين على وجه الخصوص، يرى بأنها جدل ونقاش مستمران بين نظريات مختلفة، لايمكن أن تكون كلها صحيحة، في وقت واحد، وفي موضوع واحد، وأنها على أفضل تقدير محاولة ترجيح نظرية على أخرى، من شأنها ترك العقل حراً، يختار في ميدان النظري ما يروقه دون أن يكون على يقين في شيء، وبذلك تصبح الفلسفة مدرسة شك، بلاً أن تكون مدرسة يقين وعلم. وفي نقده للفلسفة ايضاً يذهب الى أنه لا توجد فيها وسيلة تُجَنب الإنسان الخطأ وليس فيها قاعدة يُثَبت أقدامه في الحياة عليها، عليه فأنها لم تكن حكمة بالمعنى الصحيح، فاليقين معدوم من الناحية النظرية، أما الفلسفة الحقة فهي بحث عن الحكمة، ومن شأن الحكمة أن تكون نوراً للإنسان يقوده في الحياة. وقد كان ديكارت تواق أن يميز الصح من الخطأ ليرى بوضوح، ويسير في ثبات. ولم يتوقف نقد ديكارت للفلسفة التي تعلمها عند هذا الحد، بل تجاوزها لينقد العلم الرياضي ايضاً، ويرى بأنه لا يمكن تطبيقه بشكل عام و شامل في جميع نواحي الحياة والعمل، مما يدل على أن هذا العلم كان محدوداً وضيقاً[1].

وفي محاولته لإثبات وجود الله يقدم ديكارت ثلاث الحجج و براهين فلسفية منطقية في محاولة فلسفية ليثبت وجود الله: أذ يحاول اولا أن يستعين ديكارت بمبدأ العلة ويقول إذا كانت علة تفكيره في شيء أكمل منه، فمن المنطقي أن تكون موجودة أصلا أولاً، وثانياً يجب أن يكون فيها من الكمال أكثر مما هو موجود في المعلول، من هنا تكون من المستحيل أن تأتي الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم، كما أنه من المستحيل أن تكون مستمدة من نفسه، عليه فإنه لابد أن تكون قد وضعت فيه من قبل كائن طبيعته أكثر كمالا، ويكون في ذاتها كل الكمالات، وهذا الكائن هو الله[2]. من هنا فإن ديكارت يرد على الأنتقادات القائلة بأنه ليس بالضرورة أن تكون هناك في ذهن إنسان فكرة عن شيء أكثر كمالاً منه أن تكون هذه الفكرة أكثرة كمالا منه، بل وليس شرطاً أن يكون ما تمثله هذه الفكرة موجوداً. ويقول في ذلك بأن هناك ألتباس في إستعمال كلمة فكرة، فإما أن تؤخذ الفكرة على وجه مادي، وبهذا الإعتبار لا يمكن أن يقال إنها أكمل من الإنسان، وإما تؤخذ على وجه موضوعي بمعنى الشيء الذي تمثله هذه العملية، وهذا الشيء حتى وإن لم يفترض وجوده خارج الذهن، يمكن مع ذلك أن يكون أكثر كمالا من الإنسان من حيث ماهيته[3].

([1]) د.نجيب بلدي، مرجع سبق ذكره، ص28-29.

([2]) رينية ديكارت، مقال في المنهج، مرجع سبق ذكره، ص220.

([3]) رينية ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص49.

وفي جانب آخرى يناقش موضوع الوجود من جانب كينونة الإنسان ويرى بأنه مادام الإنسان عرف أنه موجود غير تام الكمال، إذا فهو ليس الكائن الوحيد في الوجود. عليه فلا بد أن يكون هناك علة، لأنه لوكان هو علة وجود نفسه، لكان يستطيع أن يحصل من نفسه كل المعرفة ولا ينقصه شيء للوصول الكمال. لأن الكمال ليس إلا جانب من جوانب الوجود، والذي ليده قدرة على أن يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمال أيضاً. إذا يكون علة وجوده ذاتاً آخر لديها كل ما يتصوره من الكمالات وهذه هي ذات الله[1].

وفي سياق ذاته يربط ديكارت بين الوجود والماهية ولا يتصور وجود أحدهما دون الآخر، وهذا بمثابة نقد للفلاسفة المدرسيين الذين ميزوا بين الوجود والماهية، ويؤمنون بأن الشيء يوجد، و وجوده يعني أن ماهيته متحققة فيه، وأن هذا الشيء، له صفات عرضية، وقد توجد وقد لاتوجد فيه وعدم وجودها لا تؤثر على وجود الشيء بحد ذاته، ولا يقتضي زواله. إلا أن ديكارت يرفض مثل هذا التمييز المطلق بين الوجود والماهية، وأن هذا التمييز قد تكون صحيحة بالنسبة إلى كل الأشياء المادية والعقلية، فيما خلا الله، لأن وجوده هو عين ماهيته، بمعنى أنه لايمكن الفصل في طبيعة فكرة الله، بين الوجود والماهية. مثلما لا يمكننا الفصل بين فكرة الوادي عن الجبل، والإبن عن الأب، والفوق والتحت، سواء كان ذلك في عالم الذهن أو عالم الحقيقة[2].

بناءاً على ما سبق يمكن القول فمع أن ديكارت إعترف بكون حواسنا الظاهرة وكل ما تأتينا عن طريقها صدراً للمعرفة، إلا أنه أكد على أنه لايمكن أن تكون تلك الحواس محل الثقة، فقد يكون خداعة في بعض الأحيان، ومن الحكمة أن لا نثق بالذي خدعنا حتى ولو لمرة واحدة. كما قام بتوجه إنتقاداته لنظرية المعرفة، لاسيما في بداياته عند فلاسفة الأغريق الذين أكدوا على تشكل المعرفة من خلال تشكل صورة الشيء في العقل، ليصبح العقل كموضوعه، ليكون معيار الحقيقة عندهم هو معيار التطابق أو التماثل بين الفكرة والموضوع. إلا أن ديكارت غير هذا التصور للمعرفة وكيفية تحققها رأسا على عقب، وأفرغ العقل والعالم من الصور، وألقى بمبدأ التماثل جانبا وبدله بعملية التمثل الذهني وجعل من التمثلات الذهنية نفسها موضوعا للتأمل العقلي.

وقد خصص ديكارت جانباً مهماً لتقديم دلائل لإثبات وجود الله، وقد قدم مجموعة من الدلائل فلسفية منطقية في هذا المجال، فقد إستعان بمبدأ العلة، فإذا كانت علة تفكيره في شيء أكمل منه، فمن المنطقي

([1]) رينية ديكارت، مقال في المنهج، مرجع سبق ذكره، ص133

([2]) د.مهدي فضل الله، مرجع سبق ذكره، ص134.

أن تكون موجودة أصلا. عليه فمن البديهي أن يكون أكثر كمالاً مما هو موجود في المعلول، فضلاً عن ذلك من غير منطقي أن تأتي الصورة الذهنية للكمال التام من العدم، كما أنه من المستحيل أن تكون مستمدة من نفسه، وهذا يصلنا إلى أن تلك الصور الذهنية للكمال وضعت فيه من قبل كائن طبيعته أكثر كمالا، ويكون في ذاتها كل الكمالات، ولابد أن يكون هذا الكائن هو الله. أما فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الوجود والماهية، فإنه يرفض التمييز المطلق بينهما، كما ذهب المدرسيون، وأكد ديكارت على الربط بينهما، بحيث لايمكن تصور وجود أحدهما دون الآخر، حتى وإن كان التمييز قد تكون صحيحة بالنسبة الى كل الأشياء المادية والعقلية، فضلاً عن وجود الله، حيث أن وجوده هو عين ماهيته.

الخاتمة والاستنتاجات

ظهرت في خضم المناقشات والجدل الفكري الذي كان دائراً في عصر التنوير، خصوصاً في القرن السابع عشر، إتجاهات فلسفية وفكرية ساهمت في إرساء قواعد الفكر السياسي الغربي. ولعل أبرز تلك الإتجاهات هو الإتجاه التجريبي الذي ظهر على يد بيكون و يتخذ من التجربة والمدخلا الحسية مصدراً للمعرفة. والإتجاه العقلي، الذي يمثله ديكارت، والتي كان يؤمن بأن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، والإيمان بأن التقدم الإنساني مرهون بمدى تقدم المعرفة العقلية والعلمية. من هنا وعلى ضوء الفرضية الرئيسية ومن خلال المنهج المتبع، وبعد بحث والتحليل نختتم هذا البحث بإدراج أهم الإستنتاجات التي تم التوصل إليها في النقاط الآتية:

1. أن من الأوائل الذين وضعوا الحجر الأساس للعلم التجريبي هو بيكون، فقد كان فيلسوفاً واقعياً، يستند فلسفته على الملاحظة الخارجية والتجربة العلمية. وحاول اللجوء إلى الطبيعة وملاحظة ظواهرها وعدم الإكتفاء بالإستدلال القياسي القديم الذي أعتمد عليه مفكرون السابقون. كما قدم منهجاً جديداً، منهجاً تجريبياً يرمي إلى كشف القوانين، وسمى منهجه بـ"الأورغانون الجديد".
2. عليه فإن فلسفته تقف بين العقلانية المجردة والتجريبية الخالصة، ويرى أن ثروة الفكر هو الجمع بين ملكتين التجربية والعقلية. كما ناعى بإتباع منهج يبدأ بملاحظة الأشياء والحوادث، يتحرك نحو تعميمات أوسع فأوسع. ويمكن إثبات خطئها بالتجربة.ويرى أن العقل بطبيعته منجذب نحو النفاذ الى العموميات لكي يتجنب العناء؛ ولذا فإنه سرعان ما يضيق ذرعاً بالتجربة. مع ذلك فإنه يرفض التجربة الخالصة، ويرى بأن الوقائع الغير مرتبة لا تصنع العلم، أي ترتيبها من خلال العقل. وهذا يعني إنفتاح العقل على التجربة.

3. حدد بيكون عوائق وأوهام تحدق بالعقل البشري وتحاصر الفكر الإنساني، وهي أوهام القبيلة، أوهام الكهف، أوهام السوق، وأوهام المسرح.
4. كما إتخذ بيكون موقفاً سلبياً تجاه الجمود واليقين، ويرى بأنه إذا بدأ الأنسان تأملاته، باليقين، انتهى الى الشك؛ أما إذا بدأ بالشك وتحمله في الصبر لحين من الزمن، سوف تنتهي الى اليقين. من هذا المنطلق يقوم بقراءة نقدية للفلسفات التي سبقه من الأنسيين والمدرسيين والمنطق الأرسطي، وغيرهم من الذي يعتبرهم بأنهم مسؤلون عن تأخر العلوم الطبيعية. لذلك أكد على أنه يسعى إلى إقامة بناء فلسفي جديد، وذلك من خلال إزالة الركام القديم وأنقاضه، لأنها ليست إلا مجموعة من الأخطاء، عند الوقوع فيها حتما يؤدي بك إلى نتائج خاطئة.
5. أما ديكارت فقد كان من المفكرين النقديين الذين لم يستسلموا للأحكام السابقة دون فحصها و تحليلها. وافرغ سلة عقله من كل الأفكار والمعتقدات لكي يميز بين خطأها و صوابها قبل أن يجزم بأنها أفكار يقينية. كما يعتبر ديكارت من الفلاسفة الذين لا يؤمنون بشيء قبل أن يتم فحص السبب الذي يدفعه يؤمن به، وإن أي شخص أراد أن تكون باحثاً مخلصاً عن الحقيقة فمن الضروري أن تشك في كل شيء لأقصى درجة ممكنة، عليه فإنه يجب علينا أن نفكر في ما يمكن أن نكون متأكدا في معرفته، من خلال ذلك طور منهجاً جديداً يعرف هذ المنهج بالمنهج الشك الديكارتي.
6. من هنا فإن تكمن روح فلسفته ومنهجيته في محاولة التخلص من الشوائب والأحكام المتعلقة بالذهن، وإجراء مراجعة نقدية لما يحمله الذهن من أفكار، من دون أن يأخذ أي شيء بأنها الحقيقة.
7. أكد ديكارت على أنه لا يمكن أن نثق بحواسنا لأن كثيراً ما ننخدع قبل حواسنا، وافترضنا شيئاً صحيحاً لم يكن صحيحاً، من غير أن نعرف بداهة أننا قد خدعنا. لذلك يمكن في أية لحظة أن نفترض أننا خدعنا و أننا نستطيع الشك بصحة وجود ما يبدو في العالم حولنا، ولكن هناك شيئاً واحداً لا نستطيع الشك فيه وهو أننا نشك، لأننا إذا كان علينا أن نشك في ذلك، فإن علينا أن نظل شاكين أيضاً. و لا يوجد سبيل أو طريقة من التأكد أو نفي الواقع المعاش وإن الشك يمكن أن يساورك في كل شيء إلا في حالة واحدة وهي الشك في أنك تشك لأن ذلك يتنافى مع المنطق، لأننا نتيقن من أننا لدينا وعي للتفكر، لذلك قال ديكارت" أنا أفكر إذا أنا موجود"، والذي يعرف بمبدأ "الكوجيتو" الديكارتي.

8. تأسيساً على ذلك ينتقد ديكارت تفكير الفلاسفة السابقون حول فكرة الوجود، الذين يؤمنون بأن للوجود المادي الأسبقية أو الصدارة على الوجود الفكري أو الذهني، في حين أن ديكارت يؤمن بأن للوجود الذهني أو الفكري الصدارة على الوجود المادي، وأن الوجود المادي تابع له. ليصل في النهاية إلى مقصده النقدي وذلك بنقد المعرفة، تلك المعرفة التي تأتينا عن طريق حواسنا الخارجية كانت أم الباطنة، ويرفض أن تكون هذه الحواس مصدراً للمعرفة. لأنها تكون خداعة في كثير من الأحيان.

References

أولاً: المعاجم والموسوعات:

1. Abdul Rahman Badawi, Encyclopedia of Philosophy, Part 1, Published by The Arab Foundation for Study and Publishing, Beirut, 1984.
2. Andre Laland, Laland's Encyclopedia of Philosophical, Part3, translated by Khalil Ahmed Khalil, Published by Oweidat , Beirut, 2nd Edition, 2001.
3. Jalal Al-Din Saeed, A Dictionary of Philosophical Terms & Evidences, Published by Dar Aljnoub, Tunisia, 2004.
4. Murad Wahba, The Philosophical Dictionary, Published by Dar Quba, Publishing and Distribution, Cairo, 2007.

ثانياً: الكتب العربية والمعربة:

1. Abdullah Ibrahim, Conformity and Difference: Western Centralism - The Problematic of Formation and Self-Centering, The Arab Cultural Center, Beirut, 1997.
2. Adel Mustafa, Illusions of the Mind - A Reading of the Organon of the Mind by Francis Bacon, Hndawy CIC Foundation, UK, 2018.

3. Amal Mabrouk, Modern Philosophy, Altanweer for Printing & Publishing, Beirut, 2011.

4. Amile Barhyia, The History of Philosophy –The 7th Century, translated by George Tarabishi, Dar Altaliaa for Printing & Publishing, Beirut, 1983.

5. Bertrand Russell, history of western philosophy, Book3–Modern Philosophy, translated by Muhammad Fatihi Alshenety, General Egyptian Book Organization, Alexandria, 1977.

6. Francis Bacon, The New Organon–Honest Guidelines in the Interpretation of Nature, translated by Adel Mustafa, Hndawy CIC Foundation, UK, 2018.

7. Jennifer Michael Hecht, A History of Doubt, translated by Imad Sheikha, The National Center for Translation, Cairo, 2014.

8. Kamil Muhammad M. Oweidha, Francis Bacon – Philosopher of the Modern Experimental Method, Dar Al–Kotob Al–ilmiyah, Beirut, 1993.

9. Mahdi Fadlallah, Descartes' philosophy and method – An analytical and critical study , Dar Altaliaa for Printing & Publishing, Beirut, 3rd edi.1996.

10. Mahmood Muhammad Ali Muhammad, The Concept of Rationality according to Stephen Tolman, Mohsen Press, Sohag– Egypt, 2008.

11. Mustafa Ibrahim Mustafa, Modern Philosophy from Descartes to Hume, Dar Al–Wafaa for Printing and Publishing, Alexandria, 2000.

12. Najib Al–Sharouni, The Philosophy of Francis Bacon, Culture for Printing and Publishing, Casablanca–Morocco, 1984.

13. Najib Baladi, Descartes, Dar Al Maaref, Cairo, 2 Edi. 1987.

14. Nigel Warburton, A Little History of Philosophy, translated by Muhammad Mufadhall, Scientific Books House for Printing, Publishing and Distribution, Baghdad, 2019.

15. Rawya Abdulmoneim Abbas, Descartes-Mental Philosophy, Dar Elmaarefa Elgameaia, Alexandria, 1989.

16. Rene Descartes, An article about the curriculum, translated by Mahmood Muhammad Alkhudairi, General Egyptian Book Organization, Alexandria, 3rd edition, 1985.

17. Rene Descartes, Meditations on First Philosophy, translated by Othman Amin, The National Center for Translation, Cairo, 2009.

18. Stuart Hampshire, The Age of Reason- The Seventeenth Century Philosophers, translated by Nazim Tahan, Dar Alhiwar for Publishing & Distribution, Latakia - Syria, 2nd Edi. 1983.